مجلة الرائد

العدد : ١٩٨ الموافق في محرم ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٥ ميلادي

عنوان المقال : من ضوابط الخطاب الإسلامي في الغرب	بقلم :أ. متولي موسى

لم يعد من المقبول واقعياً تصوير أزمة المسلمين في الغرب بأنها أزمة أخلاق وقيم فقط ، فتلك غفلة عن المشكلات المعقدة للمجتمعات الغربية المعاصرة ، وعن تعدد عُقد شبكة علاقاتها وارتباطاتها... فهذه المجتمعات هي البيئة التي تعيش فيها الأقليات المسلمة... وهي ذات تأثيرات بالغة - لا ينكرها عاقل - على الجالية المسلمة...!!!

وأمانة المسؤولية عن المسلم والبيئة المحيطة به تقتضي من الفعاليات الإسلامية عامة ، والتي تعيش في الغرب خاصة ، بذل مزيد من الجهد والعناية لفهم مشكلات الحداثة وإدراك أبعادها وتأثيراتها على المسلمين وغير المسلمين من منطلق { **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** } [الأنبياء:١٠٧] .

إن الثورات الصناعية والإدارية والمعلوماتية المتعاقبة ، والتطور المتصل الحلقات في وسائل الإنتاج والحركة والنقل ، وسبل نقل المعلومات واختزانها واستخدامها... كل ذلك قد أوجد مشكلات اجتماعية جديدة ، كما أعطى لكثير من المشكلات الكائنة أبعاداً لم تكن لها من قبل . إن العقبات الناتجة عن نقص المواد الغذائية وسوء توزيع الثروات الاقتصادية بين بلاد الشمال والجنوب ، والدول القوية والضعيفة ، والمشكلات الناتجة عن تلوث البيئة واختلال العلاقات بسبب وجود قوى الاستكبار وسباق التسلح ، وتطور الصناعات الكيماوية وأثر ذلك على ثقب الفضاء الخارجي - كل هذه الأزمات لا تقل عن أزمة الأخلاق والقيم ، وليس من المعقول أن تبقى خارج دائرة اهتمام الخطاب الإسلامي ، فإذا خلت برامج الفعاليات الإسلامية في الغرب من طرح معالجات أو المساهمة في علاج هذه الأزمة ، فسيكون ذلك سبباً كافياً لانقطاع هذه الفعاليات عن المجتمعات التي تعيش فيها ، ولكان ذلك سبباً لريب وتردد أنسجة المجتمع - فضلاً عن الأفراد - في الاتصال بهذه الفعاليات ، وعدم أخذ خطابها مأخذ الجد . وبناء على ذلك أقول :

١- إن الله تعالى خالق المخلوقات ، العليم بدقائق حياة الإنسان ، هو الذي أنزل الإسلام رحمة للعالمين ، وأمر المؤمنين به فقال : { **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين** } [البقرة:٢٠٨] . ولكن شمول الإسلام لأجزاء وجوانب الحياة المختلفة لا يعني - على مستوى التنظيم والحركة - أن تندب كل فعالية نفسها لأداء كل المهام التي يتطلبها الإسلام في عصرها ومكانها ، فكل ميسر لما خلق له ، وكل مسؤول عما يحسنه ، والتخصص سبيل لا غنى عنه

لإتقان العمل وإحسانه ، وهو سمة من سمات العصر تعبر عن نمو المعارف والعلوم واتساعها مساحة وعمقاً من ناحية ، فضلاً عن حاجة كل جانب من جوانبها إلى انقطاع طائفة لمعالجته وانقطاع غيرهم لمعالجة غيره من ناحية أخرى . لذلك كله فلا غرابة في أن تتعدد الفعاليات تعدد تنوع لا تعدد تضاد ، وأن يهتم خطاب بعضها بالفكر والثقافة ، ويهتم خطاب أخرى بالتكوين والتربية ، وأن يهتم خطاب طائفة ثالثة بالحوار والذبّ عن الإسلام... الخ ، دون أن ينكر أحد على سواه ، أو تهوّن فعالية إسلامية من قيم توجه فعاليات أخرى... وإنما يسعى كل فريق إلى تكامل الفعاليات وتعاضدها... إذ أن التجربة الإنسانية في الميدان الواحد تحتاج إلى جهود عديدة تتسابق وتتنافس في التقرب إلى الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان .

٢- إن الإصلاح الاجتماعي وعلاج المشكلات الموجودة والمستجدة لا يتحقق بإصدار أحكام الإدانة على الممارسات القائمة ، وإنما مهمة الفعاليات الإسلامية أن تقدم للناس في خطابها البدائل الصالحة لكل ما يلزم هجره وتغييره ، والبديل لا يكون صالحاً إلا إذا تحققت له - فوق التزامه مبادئ الإسلام وشرائعه - القدرة على تلبية الحاجات وتحقيق مصالح العباد والبلاد .

إن مؤسسة واحدة تقوم على مبادئ الإسلام وتحقق مصالح العباد ، أثقل في ميزان الفاعلية والتغيير بالتحول إلى الإسلام من عشرات الخطب والكتب والمجلات ، التي تكتفي بالسب وإصدار الأحكام بتخطئة الآخر والإنكار عليه فقط ، فإشعال شمعة في الظلام أبلغ من سب الظلام... ولذلك فإن المنهج السليم للإصلاح والعلاج هو الذي يساعد على هجر المنكر وتقديم حلول للمشكلات ، وهذا يقتضي توجيه الجهد الأكبر لإنشاء مؤسسات قادرة على توجيه السلوك وتنميته : كالمدارس ، ورياض الأطفال ، ومعاهد البحث ، والنوادي الاجتماعية والرياضية... الخ ، على أن أخطر وأسوأ ما يمكن أن تتعرض له مثل هذه المؤسسات أن ترفع شعارات وأسماء إسلامية ، في الوقت الذي تمارس فيه تحت هذه الشعارات أفعالاً وأنماطاً من السلوك تقوم على الغش والخديعة... فوجب الانتباه والحذر !!!

٣- الأصل في الخطاب الإسلامي أنه ثورة على الواقع المناقض لتعاليم الإسلام ، فهو ثورة في حياة الفرد ونسيج الجماعة بما يحدثه من تغيير في حياة الفرد والمجتمع ، ولكن هذه الثورة لا تعني سلوك سبيل العنف ، واتباع وسائل الطفرة والتغيير المفاجئ ، والقفز على واقع الأفراد والمجتمعات ،

إن أخطر عيوب الوسائل والأساليب الانقلابية في التغيير أنها تفرض على الناس تغييراً بالإرغام ، كما أنها تفتح أبواب استمرار صراع قائم على العنف ، وكل ذلك مرفوض بمقياس شريعة الإسلام ، قال الله تعالى : { **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** } [البقرة:٢٥٦] ، وقال عز وجل : { **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً** } [المائدة:٣٢] .

فضلاً عن أن الوسائل والأساليب الانقلابية المفاجئة تتجاهل حقيقة علمية وتاريخية هامة ، حين تتصور إمكان تثبيت نظم وأوضاع لا يقتنع الجمهور بها ، ولم تتخذ السبل لتقبل تطبيقها .

٤- إن الثقافة والتربية تعبران معاً عن تنمية الشخصية ، وتزويدها بالمعارف والخبرات والقيم العليا ، وهذا يتطلب من الفعاليات الإسلامية إنشاء المؤسسات التثقيفية والتربوية اللازمة والملائمة ، وفق مخطط مستوعب للواقع والظروف والحاجات والإمكانات ، مع مضاعفة الاهتمام بتعليم اللغة العربية بوصفها وعاء الثقافة الإسلامية ، وذلك للمحافظة على الهوية الإسلامية في الغرب ، وتجنيب الأجيال التي تولد في الغرب آثار الازدواجية التي تفرض عليها بين حياة الأسرة وحياة المجتمع دون إدراك واستيعاب . ولا بد من التأكيد هنا على ضرورة الاهتمام بالفنون المختلفة من شعر وقصة ورسم وتمثيل .. الخ ؛ فالفن الإسلامي أسلوب يمكن عن طريقه تهذيب الذوق وتعميق الإحساس بما أودعه الله تعالى في الكون من روعة التناسق وعظمة الخلق ، وجمال الصورة .. وإن الإحساس بالجمال عمق من أعماق الشخصية لا تجوز الغفلة عنه ، وتربية الذوق رافد جليل الأثر من روافد التربية تنعكس آثاره على السلوك الإنساني ، فلا يجوز أن يبقى خارج إطار الخطاب الإسلامي .

٥- الخطاب الإسلامي في الغرب ينبغي ألا يقوم على المواجهة ، وإنما هو محاولة للفهم والتعايش ، أو بعبارة أخرى يقوم على النقد البناء ، ولكنه في نفس الوقت ليس تابعاً خاضعاً ، أو مقلداً ناقلاً للحداثة الغربية . فهو يصدر عن ثوابته الإسلامية { **قل يا أيها الكافرون ❊ لا أعبد ما تعبدون ❊ ولا أنتم عابدون ما أعبد ❊ ولا أنا عابد ما عبدتم ❊ ولا أنتم عابدون ما أعبد ❊ لكم دينكم ولي دين** } [الكافرون] ، وذلك لا يمنع من الاستفادة مما عند الآخر ، كما أن التعددية لا تعني التنافر أو التضاد بالضرورة { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** } [الحجرات: ١٣] وذلك عكس الحداثة في الخطاب الغربي المعاصر فقد تأرجحت بين قطبين متنافرين : الزعم

باليقين الكامل ، أي : العقلانية ، أوالشك المطلق . أي : اللاعقلانية ، وتعمد إلى إقصاء الآخر ، وخاصة إذا تعلق الأمر بالإسلام ؛ ففي مثل هذه الحالة يتمسك الخطاب الإسلامي بقول الله تعالى : { **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلى الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** } [آل عمران : ٦٤] .

٦- وأخيراً على الفعاليات الإسلامية أن تدرك أن الخطاب الإسلامي في الغرب ليس له وحده الأثر الفعال ، وإنما على الجالية المسلمة أن تمتلك أيضاً شروط وأسباب التأثير من خلال أفرادها ومؤسساتها ذات الأثر والنشاط ، فالمسلمون في الغرب جزء من المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولا يمكنهم ممارسة خطابهم وحياتهم منعزلين ، فهم بطبيعتهم مشتركون مع سواهم في شبكة علاقات واسعة وأنسجة تعامل متعددة ؛ من علاقات جوار في السكن والعمل وأماكن الدراسة ووسائل النقل ، وتبادل مصالح ومنافع وتنافس على الكسب... الخ ، فلزم الإدراك للواقع والتعامل بالحكمة والموعظة الحسنة مع الناس أجمعين